المنظومة
ALMANDUMAH

العنوان:	طوق الحمامة من ابن حزم إلى نزار قباني
المصدر:	مجلة الفيصل الأدبية
الناشر:	مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية
المؤلف الرئيسي:	قرنوب، يوسف سليم
المجلد/العدد:	مج6, ع1,2
محكمة:	لا
التاريخ الميلادي:	2009
الشهر:	ربيع الآخر
الصفحات:	74 - 81
رقم MD:	913486
نوع المحتوى:	بحوث ومقالات
قواعد المعلومات:	AraBase
مواضيع:	الشعر العربي، الشعراء العرب، نقد الشعر، الدراسات الأدبية، كتاب طوق الحمامة، ابن حزم، قباني ، نزار
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/913486

© 2024 المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو المنظومة.

للإستشهاد بهذا البحث قم بنسخ البيانات التالية حسب إسلوب الإستشهاد المطلوب:

إسلوب APA

قرنوب، يوسف سليم. (2009). طوق الحمامة من ابن حزم إلى نزار قباني.مجلة الفيصل الأدبية، مج6, ع1,2، 74 - 81. مسترجع من http://search.mandumah.com/Record/913486

إسلوب MLA

قرنوب، يوسف سليم. "طوق الحمامة من ابن حزم إلى نزار قباني."مجلة الفيصل الأدبية مج6, ع1,2 (2009): 74 - 81. مسترجع من http://search.mandumah.com/Record/913486

© 2024 المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو المنظومة.

طوق الحمامة

من ابن حزم إلى نزار قباني

يوسف سليم قرنوب

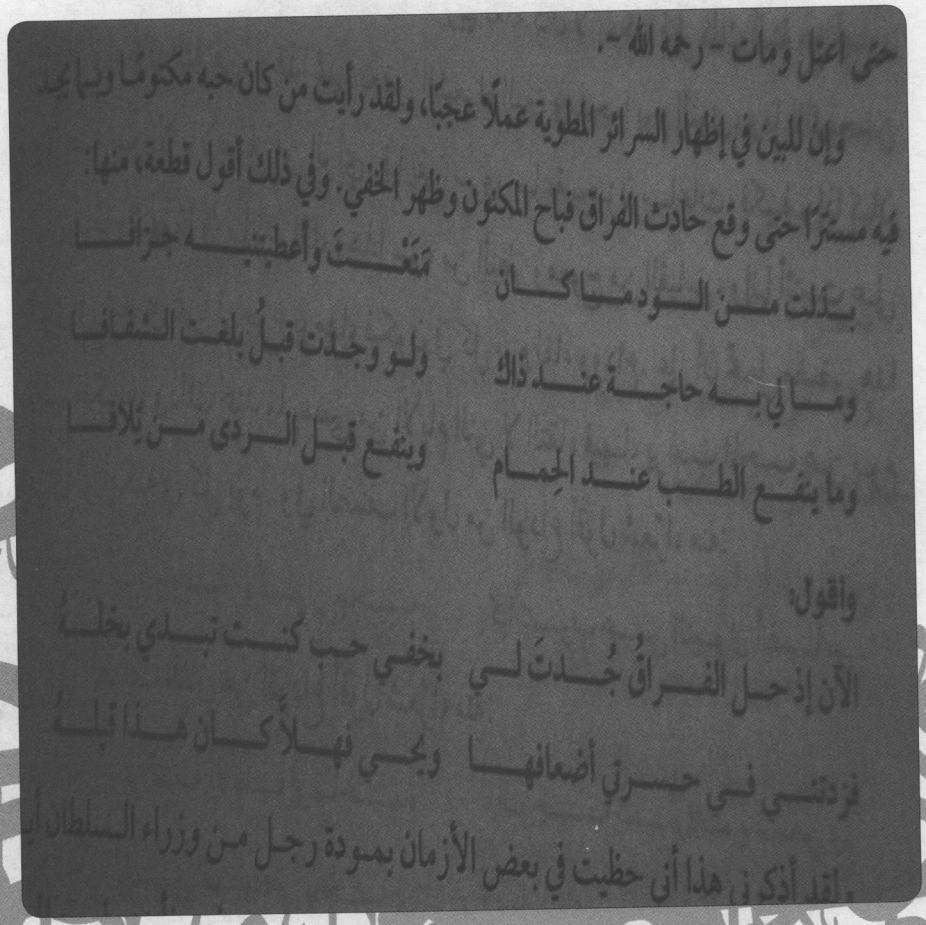
حتى اعتل ومات - رحمه الله -.

وإن للبين في إظهار السرائر المطوية عملاً عجيبًا، ولقد رأيت من كان حبه مكتومًا وسهمه فيه مستترًا حتى وقع حادث الفراق فباح المكنون وظهر الخفي. وفي ذلك أقول قطعة، منها:

بذلت من الود ما كان تمنعت وأعطيته جزافا

وما لي به حاجة عند ذاك ولو وجدت قبل بلغت الشفافا

وما ينفع الطب عند الحِمام وينفع قبل الردى من تلافا

وأقول:

الآن إذ حل الفراقُ وُجدتَ لي بخفي حب كنت تبدي بخلهُ

فوددتني في حسرتي أضعافها وبحي فهلاَّ كان هذا قبلهُ

لقد أذكرني هذا أني حظيت في بعض الأزمان بمودة رجل من وزراء السلطان

يندر أن تقابل مثقفاً لم يسمع بكتاب ابن حزم (طوق الحمامة في الألفة والألّاف). هذا الكتاب الذي يعدّ موسوعةً متكاملةً في عالم الحب والمحبين، يصف الجوانب المختلفة لهذا العالم، ويشفع التوصيف بما يوافقه من الشعر الجميل.

يصنّف ابن حزم كتابه في ثلاثين باباً، منها عشرة أبواب في (أصول الحب)، واثنا عشر باباً في (أعراض الحب، وصفاته المحمودة والمذمومة)، وستة أبواب في (الآفات التي تدخل على الحب). ويختم بحثه بموضوعين متعاكسين: الحب الذي ينتهي بالمعصية، والحب العفيف الذي يفرّ من المعصية. وهذا ما يجعل كتاب ابن حزم يصبّ أخيراً في بوتقة الأخلاق، وهي النتيجة ذاتها التي تصل إليها بعد قراءتك ما كتبه نزار قباني عن الحب والمرأة.

في طوق الحمامة - كما في ديوان نزار - تجد كل قضايا العشاق مطروحة أمامك: الوصل، والهجر، والعتاب، والشغف، والملل، وغيرها. فإذا أردت البحث في إحدى هذه القضايا فما عليك إلا أن «تنقر» الكلمة المطلوبة، وسوف تجد تغطية وافية للموضوع. لكن ثمة فرق واضح وجليّ بين ابن حزم ونزار؛ فالأول كتب في الحب بطريقة الناقد، في حين كتب الثاني بطريقة الشاعر، والفرق كبير بين الطريقتين، إضافةً إلى ما يُعرف عن نزار من بساطة الأسلوب، وسلاسة المفردات، وهذا الأمر يجعل شعره يصل إلى كل الناس.

باب (علامات الحب)

يقول ابن حزم: إن أولى علامات الحب هي (إدمان النظر)؛ إذ إن المحب يتبع المحبوب بنظره أينما ذهب. وإن رآه فجأةً حصل لديه تعب مفاجئ. يقول نزار:

تراني أحبك؟!.. لا أعلم
سؤال يحيط به المبهم
وإن كان حبي افتراضاً لماذا
إذا لحتِ طاش برأسي الدم؟
وحار الجواب بحنجرتي
وجفّ النداء.. ومات الفم

ومن علامات الحب أيضاً أن المحب يستدعي اسم من يحبه، ويستلذّ الكلام في أخباره:

اسمها في فمي بكاء النوافير
رحيل الشذا.. حقول الشقيقِ
أحرف خمسة أشفّ من الضو
ء وأشهى من نكهة التطويقِ
أحرف خمسة كأوتار عود
كترانيم معبد إغريقي

ومن العلامات: السهر، حتى قيل: إن المحبين رعاة الكواكب:

وفي الليل تبكي الوسادة تحتي
وتغفو على مضجعي الأنجم

باب (من أحبّ صفةً) في المحبوب ولا يهمُّه سواها:

كأن يحبّ شعرها الأسود (الفاحم):

يا شعرها على يدي
شلال ضوء أسودِ
ألمّه سنابلاً
سنابلاً لم تُحصدِ
لا تربطيه واجعلي
على المساءِ مقعدي

أو يُغرم بعينيها الخضراوين:

يا عين.. يا خضراء.. يا واحة
خضراء ترتاح على المرمرِ
في عينها لون مشاويرنا
نشرد بين الكرم والبيدرِ
عيناك يا دنيا بلا آخر
حدودها دنيا بلا آخرِ

أو بشفتها الصغيرة التي تشبه (حبة الفستق):

منضمةٌ.. مزقزقةٌ
مبلولة.. كالورقةْ
سبحانه من شقَّها
كما تشقُّ الفستقةْ
نافورة صادحة
وفكرة محلِّقةْ

هل الحب يأتي من النظرة الأولى؟

يقول ابن حزم: إن الحب الذي يأتي من النظرة الأولى هو وليد الشهوة، وإن الحب الحقيقي لا يأتي إلا بعد طول المعرفة. ويوافقه في ذلك نزار:

لم يكن حبك العميق ارتجالاً
هو رأيٌ وفكرةٌ واعتقادُ

باب (المراسلة) والـ(سفير)

يلجأ المحبون إلى كتابة الرسائل للتعبير عما يعانونه من الشوق. وقد يضيف أحدهم - والكلام لابن حزم - قطرات من دمه لحبر الكتابة، أو أنه يكتب رسالته بدمه. أما نزار، فإنه يشعر بالفرح لتسلُّم أي رسالة من حبيبته، حتى لو تضمّنت كلاماً بسيطاً؛ لأنه يراها بين السطور:

إليَّ اكتبي ما شئتِ.. إني أحبه
وأتلوه شعراً ذلك الأدب الحلوا
أحسّك ما بين السطور ضحوكةً
تحدِّثني عيناك في رقة قصوى

وقد يتراسل المحبون بأشياء بسيطة؛ لتكون وسيلة التعبير عن مشاعرهم. وهذا نزار قباني يتغنَّى بالوردة التي جاءته من الحبيبة:

أقبلت خادمها تهمس لي:
هذه الوردة من سيِّدتي
وردة... سيِّدة الورد.. ألا
قبِّلي عني يدَيْ ملهمتي
في إناء الورد لن أحبسها
إنني غارسها في رئتي

ولكن الأمور لا تسير دوماً كذلك؛ فقد تبعث بالورد إلى من تحبها، لكنها تتجاهل الرسالة كليَّةً:

شكراً لطوق الياسمين
وضحكتِ لي.. وظننتُ أنك تعرفين
معنى سوار الياسمين
يأتي به رجل إليك
ظننتُ أنك تدركين

(طيّ السرّ) أم (الإذاعة)؟

حينما لا يكون المحب واثقاً من أن الحب متبادل يحاول إخفاء شعوره وأحاسيسه إلى أن يحين وقت الكشف:

إلى متى أعتكفُ
عنها.. ولا أعترفُ
وجبهتي مثلوجةٌ
ومفصلي مرتجفُ

ولكن المحبّ قد يعجز عن إخفاء شعوره، فتنتشر أخباره هنا وهناك كما تنتشر رائحة العطر:

أنا عنكِ ما كلَّمتهم، لكنهم
لمحوك تغتسلين في أحداقي
أنا عنكِ ما أخبرتهم، لكنهم
قرؤوك في شعري وفي أوراقي
للحبّ رائحة وليس بوسعها
ألا تفوح مزارع الدرَّاقِ

باب (الطاعة للمحبوب)

إذ يقسر المحب نفسه على أخذ طباع الحبيب، وهو أمر يعجب له ابن حزم، ويصفه نزار:

أحب هذا اللؤم في عينها
وزُورها إن زوَّرت قولها
وألمح الكذبة في ثغرها
دائرة.. باسطة ظلَّها
أشك في شكِّي إذا أقبلت
باكيةً.. شارحةً ذلَّها

باب (الوصل)

يقول ابن حزم: الوصل حظّ رفيع، ودرجة عالية، وسعد طالع، بل هو الحياة المجددة، والعيش السنيّ، والسرور الدائم. ويقول نزار قباني:

أحبُّك غيبوبةً لا تفيق
أنا عطشٌ يستحيل ارتوائي
إذا ما أحبُّك نفسي أحبُّ
فنحن الغناء ورجع الغناء

كما يقول أيضاً:

لم أعُدْ درياً إلى أين أذهب
كل يوم أحسّ أنك أقرب
اعتيادي على غيابك صعب
واعتيادي على حضورك أصعب
كم أنا.. كم أنا أحبك.. حتى
إنّ نفسي من نفسها تتعجّب
قد تسرّبتِ في مسامات جلدي
مثلما قطرة الندى تتسرّب

ولكن ماذا يفعل المحبون الذين تحول الظروف بينهم؟ يقول ابن حزم: كثيراً ما يقضون الساعات الطوال مع شيء من رائحة المحبوب؛ مثل: منديل، أو خصلة شعر مبخّرة بالمسك والعنبر. وفي هذا يقول نزار قباني:

أعزّ ما خلَّفتِ لي خصلة
حبيبة تهتزّ فوق الفراش

باب (الهجر)

ويصنّفه ابن حزم إلى: هجر (اختبار)، وهجر (عتاب)، وهجر (ملل)؛ ففي الأول يكون الهدف من الهجر اختبار قوة المشاعر:

لنفترق قليلا..
لأنني أريد أن تزيد بي محبتي.. أريد أن تكرهني قليلا

وفي الثاني يكون هدف الهجر إصلاح ذات البين:

سامحتُهُ، وسألتُ عن أخباره
وبكيتُ ساعاتٍ على كتفيْهِ
خبّأت رأسي عنده وكأنني
طفل أعادوه إلى أبويْهِ
كم قلتُ: إني غير عائدةٍ له
ورجعتُ ما أحلى الرجوع إليْهِ

أما هجر الملل، فهو إحدى النهايات الحزينة التي ينتهي إليها الحب في بعض الأحيان.

النهايات الحزينة

هـذا الـهـوى مـا عـاد يـغـرُّ بي
فـلـتـسـتـريـحـي.. ولـتـريـحـيـنـي
إن كـــان حـبُّـك في تـقـلُّـبـه
مـا قـد رأيـــتُ فـــلا تحـبـيـنـي

هكذا يصف نزار قباني انتهاء الحب بالملل. وثمة نهايات أخرى أكثر إيلاماً يذكرها ابن حزم، وهي: الغدر، والبَيْن، والسلوّ. فالغدر - والقول لابن حزم - يُوصف به البادئ، أما الذي يردّ على الغدر بالغدر فليس بغادر. يقول نزار:

كـيـف تـآمـرت عـلـى حـبِّـنـا
وعـامـه الأول لم يـكـمـلِ
لم أتـصـــوَّر أن يـكـون على
الـيـد الـتـي عـبـدتـهـا مقتلي

أما الفراق أو (البين)، فيقول فيه ابن حزم: ما من شيء من دواهي الدنيا يعدل الفراق. وقد قال بعض الحكماء: الفراق هو الموت. وفي هذا يقول نزار قباني:

مات الحنين.. أتسمعين؟ ومُتِّ أنتِ مع الحنينِ
لا تسأليني: كيف قصَّتنا انتهت؟!.. لا تسأليني
مرَّت.. فلا تتذكَّري وجهي.. ولا تتذكَّريني

وقد يتلو الفراقَ (الاستبدالُ)، فيحلّ الحبّ الجديد محلّ القديم، وهو ما يدعوه ابن حزم (السلوّ):

مـثـلـمـا تـطـرد الـغـيـوم الـغـيـومـا
الـغـرام الجـديـد يمـحـو القديما

وقد يأخذ الأمر في بعض الأحيان طابعاً انتقامياً:

أنصتي لي..
ما هناك امرأة دون بديلِ
فاتنٌ وجهكِ.. لكن في الهوى
ليس تكفي فتنة الوجه الجميلِ

الكلام في ماهية الحب

«الحب - أعزَّك الله - أوله هزل، وآخره جدّ. دقَّت معانيه لجلالتها على أن تُوصف، فلا تدرك حقيقتها إلا بالمعاناة... وهو ليس بمنكر على الديانة، ولا بمحظور على الشريعة؛ إذ القلوب بيد الله عزّ وجلّ».

بهذه المقدمة الجميلة يبدأ ابن حزم رسالته، مبيناً حساسية الموضوع الذي ينوي الكلام فيه. ويشاطره نزار قباني الرأي نفسه من خلال أشعاره:

عـبـثـاً مـا أكـتـب سـيِّـدتـي
إحـسـاسـي أكـبـر مـن لغتي
وشـعـوري نـحـوك يـتـخـطَّى
صـوتـي.. يـتـخـطَّى حـنـجـرتي
عـبـثـاً مـا أكـتـب مـا دامـت
كـلـمـاتـي أوسـع مـن شـفـتي

ويخلص ابن حزم إلى تعريف «مركّز» للحب، فيقول: (هو استحسان روحاني، وامتزاج نفساني). ويورد مقولة بعض الفلاسفة فيما يخصّ عاطفة الحب، وهي أن النفوس قد برأها الخالق بشكل أزواج،

ثم نثرها في الكون، فإن حدث والتقت بعد ذلك شعرت بأنها تعارفت منذ زمن بعيد، وأن أواصر المحبة تنعقد من جديد، ويحدث بينها انجذاب كما بين الحديد والمغناطيس!.

ولا يوافق ابن حزم على هذه الطريقة في التفسير، فيقول: إن تآلف النفوس يعود إلى تجانس أصلها الرفيع. ويستشهد بالحديث الشريف: «الأرواح جنود مجندة، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف».

غير أن نزار قباني أضاف إلى «ثقافة الحب» شيئاً جديداً، فبيَّن أن الحب شعور رفيع ينشأ في النفس، ويصوِّر للمحب جمال محبوبه كأحسن وأروع ما يكون الجمال، وهو بذلك يزاوج بين الحقيقة والخيال، ويجعل الحلم والواقع يعيشان جنباً إلى جنب:

أخبريني من أنتِ.. إن شعوري
كشعور الذي يطارد أرنبْ
أنتِ أحلى خرافة في حياتي
والذي يتبع الخرافات يتعبْ

إن هذا الاختلاط بين الوهم والحقيقة يجعل الشاعر يتبع الحب إلى حيث لا يدري؛ لذا نجده يختم قصيدته (قارئة الفنجان) بهذه النهاية الغامضة:

ستفتِّش عنها يا ولدي في كلّ مكان
وستسأل عنها موج البحر.. وتسأل فيروز الشطآن
ستجوب بحاراً.. وبحارا
وتسيل دموعك أنهارا
وسيكبر حزنك حتى يصبح أشجارا
فحبيبة قلبك ليس لها اسم.. أو وطن.. أو عنوان
ما أصعب أن تهوى امرأةً - يا ولدي - ليس لها عنوان

تجربة شخصية أم خيال؟

(سأورد في رسالتي هذه أشعاراً قلتُها فيما شاهدته، فلا تنكر عليّ أني سالك فيها مسلك حاكي الحديث عن نفسه؛ فهذا مذهب المتحلِّين بقول الشعر).

هذا ما يقوله ابن حزم كي يبيّن لنا أن ما يقوله الشاعر ليس تجربةً شخصيةً في معظم الأحيان، بل هو مُستوحًى من تجارب الناس. وهذا أمر لا يختصّ به الشعر، بل ينطبق على كلّ الفنون الأدبية؛ كالقصة، والرواية، والمسرحية.

من جهة أخرى، فإن عملية الكتابة هي إعادة تصوير الموضوع من خلال رؤية الكاتب، فإذا نظرت إلى الأصل والصورة فستجد بينهما فروقاً كثيرة.

يشبِّه توفيق الحكيم الأديب أو الفنان بمخلوق يحمل في رأسه جهاز استقبال «ستلايت»، تأتيه المعلومات والخبرات من كل الناس وكل المجتمعات، وتندمج هذه الخبرات مع خبرته الشخصية؛ لتخرج في النهاية في شكل عمل أدبي أو فني. فإذا أخذنا في الحسبان الحياة الثرية لنزار قباني، وعمله في السلك الدبلوماسي في بقاع مختلفة من العالم في حقبة تاريخية مملوءة بالأحداث المهمة؛ نستطيع أن نقدّر حجم التجربة الإنسانية التي تقف وراء أعماله الأدبية والشعرية.

شعر الحب والمرأة ودرس الأخلاق

عندما بدأ نزار قباني نشر كتاباته

الشعرية في أواسط القرن المنصرم وقف ضده كثير من رجال الفكر والأخلاق، بدعوى أنه يفسد العقول، ويحرِّض على الرذيلة؛ فهذا الشيخ علي الطنطاوي يكتب بعد صدور ديوان (قالت لي السمراء) قائلاً: «طُبع في دمشق كتاب صغير، زاهي الغلاف، يشتمل على ما يكون بين الفاسق القارح والبغيّ المتمرسة الوقحة... وصفاً واقعياً لا خيال فيه».

وقد نسي أصحاب الفكر، أو تناسوا، أن شعر الغزل بأغراضه ومفرداته موجود منذ عصر الجاهلية، وأنه استمر بعد ذلك بالأغراض والمفردات نفسها، وقد ظلّ الشعراء مدة طويلة يبدؤون قصائدهم بالغزل.

وشعر نزار قباني في المرأة ليس (غزلاً) بحرفية المعنى، بل هو محاولة الدخول إلى عالم المرأة الواسع، ومناقشة قضاياها المختلفة. لذا أنكر نزار قباني على النقاد قولهم: إنه من مدرسة عمر بن أبي ربيعة، (وهي مدرسة الغزل المادي):

من سلالات العصافير أنا
لا سلالات الشجر..
أنا لا أشبه إلا صورتي
فلماذا شبَّهوني بعمر؟!

لذا لم يفُت الشاعر تصوير العلاقات المشبوهة والمحرمة، كما فعل من قبله ابن رشد أيضاً. وطبعاً ليس المقصود من ذلك الترويج لهذه العلاقات، بل - على العكس - إدانتها. لقد كان نزار قباني صارماً في انتقاده هذه العلاقات. اسمعه وهو يخاطب امرأةً دفعها الحب إلى علاقة محرمة:

أفيقي من الليلة الشاعلة
وردّي عباءتك المائلة
أفيقي؛ فإن الصباح المطلّ
سيفضح شهوتك السافلة
هو الطين، ليس لطين بقاء
ولذّته ومضة زائلة

واسمعه أيضاً يخاطب تلك المرأة التي تخون زوجها في غيابه:

زوجك الطيب البسيط بعيد عنك.. يا عرضه وأمّ بنيه
يترك الدار خالي الظن.. ماذا؟ أيشكُّ الإنسان في أهليه؟!
استغلّي غيابه، ربَّ بيتٍ
هدمته تلك المقيمة فيه
أوآذاك يا لئيمة حتى
في قداسات نسله تؤذيه؟!

ولنزار قباني أيضاً قصائد يصف فيها العلاقات الشاذة وبنات الهوى. وقد طرق ابن حزم هذه الموضوعات نفسها، التي بعد قراءتك لها تخرج بشعور مناهض للخطأ والرذيلة؛ مما يؤكّد الرسالة الأخلاقية لشعر نزار قباني كما هي لابن حزم.

الخاتمة

إن المتأمّل في شعرَيْ نزار قباني وابن حزم يجد تشابهاً كبيراً في الموضوعات، حتى إنك لتقرأ مفردات (طوق الحمامة) في شعر

نزار. وهذا طبعاً ليس بالأمر الغريب؛ لأن الإنسان هو الإنسان في كل زمان ومكان: يحب ويكره، ويفرح ويحزن، ويجد ويلهو. جوهر الإنسان واحد، وما يتغيَّر هو السلوك وطريقة التعبير:

صحب الناس قبلنا ذا الزمانا
وعناهم من شأنه ما عنانا
وتولوا بغصَّةٍ كلهم منـ
ـه وإن سرّ بعضهم أحيانا

(أبو الطيِّب المتنبِّي)